الصبغة المذهبية للصراع العالمى الحاضر

يعتقد كثير من الناس أن بذور حرب عالمية جديدة تبذر منذ اليوم فيما نشهده من الأحداث والمنازعات الدولية المستمرة ، وأنه ليس من العسير أن نتبين منذ اليوم طرفى النزاع فى هذا الصراع العالمى المستقبل ؛ فروسيا السوفيتية بما تلتزمه من مواقف التحدى والمعارضة المستمرة لسياسة الدول الغربية ، وبما تصر عليه من تمكين لسلطان الشيوعية فى شرقى أوربا وأواسطها ؛ والولايات المتحدة بما تجرى عليه من معارضة لمشاريع التوسع السوفيتية ، ومقاومة الخطط الشيوعية فى غربى أوربا وجنوبها ، وتدعيم الجهات المناوئة لها . كلتاهما تحدد لنا بوضوح حقيقة المعسكرين المتنازعين فى الحرب العالمية المستقبلة .

وروسيا السوفيتية ، وأمريكا هما اليوم أعظم دول العالم وأزخرها بالموارد الطبيعية والقوى المادية . وما زال الجيش الأحمر ، الذى كان له أكبر الفضل فى سحق ألمانيا الهتلرية ، أعظم قوة عسكرية فى العالم . وما زالت أمريكا من جانبها فضلا عن قواها العسكرية الهائلة ، تستأثر بسر القنبلة الذرية أروع سلاح عرفته الحرب الحديثة . ولكن هذا الصراع الذى تبدو طلائعه اليوم بين هاتين القوتين العظيمتين ، لا تقف طبيعته وعوامله عند تنافس القوى المادية ، ولكنها ترجع إلى أصول وعوامل أخطر وأبعد أثراً ، هى الأصول والعوامل النفسية والأدبية والاجتماعية .

ومتى تحدثنا عن الولايات المتحدة كأحد طرفى هذا النزاع العالمى الخطير ، فيجب ألا ننسى أن بريطانيا العظمى ، تتفق مع الولايات المتحدة تمام الاتفاق فى اتجاهاتها وأهدافها السياسية الأوربية والعالمية ، وفى مشاعرها ومواقفها إزاء روسيا السوفيتية . وإذا كانت الولايات المتحدة هى التى تتولى اليوم دون بريطانيا قيادة الجبهة المناوئة لروسيا ، فذلك لأن بريطانيا قد خرجت من الحرب مضعضعة الموارد والقوى ، ولم يبق فى وسعها أن تضطلع بكثير من أعباء

المقاومة الفعلية لخطط روسيا ، وزحف الشيوعية الدولية . ولكن من الواضح الجلى أن أمريكا و بريطانيا تعملان معا فى هذا الاتجاه بتفاهم تام وتعاون وثيق، حيثما أمكن ذلك ، كما هو حادث فى اليونان وتركيا وإيران .

ولا تتردد روسيا فى أن ترمى أمريكا و بريطانيا بأنهما تتبعان سياسة استعمارية جشعة ، وأن بريطانيا ما زالت تتمسك بسياستها الامبراطورية العتيقة ، فى التسلط على طرق البحار واستعباد الشعوب الحرة ومقاومة أية دولة أخرى تحاول التوسع المشروع ، أو افتتاح الأسواق الجديدة ؛ وأن أمريكا التى دخلت الحرب متظاهرة بنصرة الحرية والديموقراطية ، وتأييد حقوق الانسان ، ومصاير الشعوب الحرة ، قد انزلقت كذلك إلى ميدان الاستعمار ، والتوسع الاقليمى والاقتصادى ، معتمدة على سياسة الدولار والاستعباد المالى . وترمى الجبهة الأمريكية البريطانية روسيا السوفيتية من جانبها ، بأنها تتبع سياسة التوسع القيصرية القديمة ، وتعمل على استعباد الشعوب السلافية والبلقانية ، وتحاول جاهدة إحباط كل محاولة تبذل لتسوية مشكلات ما بعد الحرب ، والعمل على بث الفوضى والدمار فى أوربا ، كى تقوض أسس النظم الديموقراطية ، وتطغى الشيوعية المدمرة على الشعوب الأوربية .

والواقع أن هذه التهم المتبادلة بين الفريقين المتنازعين ليست إلا مظاهر لطبيعة المعركة الحقيقية التى تضطرم بينهما ، والتى ترجع كما قلنا إلى عوامل نفسية وأدبية واجتماعية . فالاتحاد السوفيتى يعيش منذ ثلاثين عاماً فى ظل نظم ومبادئ اجتماعية واقتصاديه خاصة تصطبغ باللون الشيوعى . وما فتئت الدول الغربية ، التى تعيش فى ظل النظم الفردية الحرة ، وفى مقدمتها بريطانيا وأمريكا ، ترى فى هذه النظم الشيوعية خطراً اجتماعيا على نظمها الحرة ، يجب تجنبه والقضاء عليه . وقد قطعت روسيا البلشفية فى بداية عهدها أعواماً طويلة ، وهى تعيش فى شبه عزلة اقتصادية وسياسية تامة ، تقاطعها الدول الغربية ، وتخشى أن يكون الاتصال بها وسيلة لتسرب الخطر الشيوعى إليها . وكانت روسيا البلشفية يومئذ تدفعها حمى المبادئ الجديدة تذهب فى غلوها إلى حد اتخاذ الثورة العالمية شعاراً لها ، ومحاولة بث بذورها أينما استطاعت بمختلف الوسائل السرية والعلنية . وقد أسفرت محاولات موسكو والدولية الشيوعية التى تحتضنها وتوجهها يومئذ عن وقوع سلسلة من الاضطرابات الشيوعية

الخطيرة فى عدة دول أوربية . ولما جنحت موسكو إلى نوع من الاعتدال بعد ذلك بعدة أعوام ، وانضمت إلى عصبة الأمم ، وقع نوع من التقارب المقرون بالحذر بين روسيا البلشفية والدول الغربية . بيد أن الولايات المتحدة الأمريكية لبثت على جفائها وعدم اعترافها بالحكومة البلشفية حتى الحرب العالمية الثانية.

وقد كانت الحرب الكبرى أو الحرب العالمية الأولى صراعاً فى سبيل التوسع والنفوذ العالمى واجتناء المغانم الاستعمارية . ولكنها لم تصطبغ بمثل الصبغة المذهبية العميقة التى اصطبغت بها الحرب العالمية الثانية . ذلك أن المبادئ الماركسية التى اتخذتها روسيا البلشفية فيما بعد سنة ١٩١٧ شعاراً لم تكن بالرغم من قيام الأحزاب الاشتراكية والشيوعية فى معظم الدول الأوربية قد حققت بعد أى ظفر عملى . فلما انتهت الحرب العالمية الأولى بسحق ألمانيا الأمبراطورية ، كانت الثورة البلشفية قد استطاعت من جانبها أن تتم القضاء على القيصرية والبورجوازية الروسية ، وأن تجعل من روسيا أول دولة شيوعية فى التاريخ . ومن ذلك الحين تبدأ الحرب المذهبية بين روسيا البلشفية ، والدول الغربية . وكانت أول مرحلة فى هذا الصراع محاولة الدول الغربية أن تقضى على الثورة البلشفية فى مهدها ، وذلك بأن تدفع العناصر المناوئة والرجعية إلى محاربة الدولة الشيوعية الجديدة . وهكذا توالت حملات « الروس البيض » أو الخوارج على الثورة على روسيا البلشفية تؤيدها وتدعمها الدول الغربية بالمال والسلاح. ولكن روسيا البلشفية استطاعت بعد كفاح دام أربعة أعوام أن تسحق هذه الحملات واحدة بعد أخرى ، وتوطدت دعائم الدولة الجديدة بسرعة ، وأخذت الدول الغربية تسلم بالأمر الواقع وتعمل تباعاً على تنظيم علائقها السياسية والتجارية مع روسيا .

بيد أن النضال مع البلشفية لم يلبث أن اتخذ مظهراً آخر . ذلك أن القوى الرجعية فى إيطاليا استطاعت أن تضرب الحركة الشيوعية فى الصميم (سنة ١٩٢٢) بعد أن تفاقمت ولاح للعالم أنها على وشك الظفر بأن تفرض سلطانها ونظمها على إيطاليا . وقامت الدولة الفاشستية فى إيطاليا تمعن فى مبادئ الطغيان وتضمر للديموقراطية والبلشفية بالأخص أشد العداء . وكما أن البلشفية كانت ترنو إلى الزحف فيما وراء الحدود الروسية . وتعمل بكل

ما وسعت على تنظيم الحركات والفورات الشيوعية أينما استطاعت ، فكذلك زعمت الفاشستية أن رسالتها لا تنحصر داخل إيطاليا وأنها سوف تعمل على بث مبادئها ومكافحة الشيوعية أينما استطاعت . ونشب من تلك اللحظة بين البلشفية والفاشستية صراع مذهبى مضطرم ، لبث أعواماً ظاهرة النضال الدولى فى أوربا . ولما وثبت الاشتراكية الوطنية الألمانية أو النازية بعد ذلك بأعوام واستولت على مقاليد الحكم فى المانيا شهرت على الشيوعية حرباً لا هوادة فيها ، وسحقت الحركة والأحزاب الاشتراكية والشيوعية فى ألمانيا كما سحقت كل نزعة ديمقراطية أو حرة بأشد الوسائل وأشنعها . ولم تكن النازية سوى حركة طغيان مطبق من أعنف وأفظع ما عرف التاريخ . وسرعان ما كشفت النازية عن خصومتها المضطرمة للبلشفية وللدولة التى تنضوى تحت لوائها . وسرعان ما تفاهمت النازية والفاشستية على انشاء جبهة « إيديولوجية » موحدة لمناوأة البلشفية والديمقراطية كلها ، وكانت الحرب العالمية الاسبانية أول مسرح لهذا الصراع « الايديولوجى » ؛ إذ هرعت إيطاليا الفاشستية وألمانيا النازية لمعاونة قوات فرانكو الرجعية ، وهرعت روسيا البلشفية لمعاونة القوات الجمهورية الاشتراكية ، ومنيت الاشتراكية والديمقراطية فى أسبانيا بأول هزيمة عملية فانهارت الجمهورية الاسبانية ، وقامت حكومة فرانكو العسكرية الفاشستية حتى يومنا .

وفى الأعوام الثلاثة التى سبقت الحرب العالمية الثانية لم يك ثمة شك فى خطورة اللون المثالى « الايديولوجى » الذى تصطبغ به المنازعات الدولية . ولم تأت سنة ١٩٣٧ حتى تألف محور رومه — برلين ، وانقسمت أوربا بصورة جلية إلى معسكرين خصيمين هما معسكر الفاشستية المكون من ألمانيا وإيطاليا والدول التى تعطف عليهما ، ومعسكر الديمقراطية المكون من بريطانيا العظمى وفرنسا وباقى الدول الغربية . وكانت روسيا يومئذ بمعزل عن المعسكرين ، وكان يظن مع ذلك أنها بالرغم من صبغتها الشيوعية أكثر عطفاً على المعسكر الديمقراطى وأقرب إلى التفاهم معه . ومن ثم فان تفاهمها قبل نشوب الحرب مع المانيا الهتلرية ألد خصومها وأخطرهم كان له وقع الصاعقة فى المعسكر الديموقراطى وكان مفاجأة مذهشة للعالم كله . بيد أنها لم تلبث أن تكشفت على حقيقتها :

وبالرغم من أن الحرب العالمية الثانية بدأت فى الظاهر لأسباب وبواعث إقليمية بيد أنه لم يك شك منذ البداية فى لونها المذهبى العميق . ولم يخف هتلر منذ الساعة الأولى أن يشهر الحرب على الديمقراطية والنظم الرأسمالية المستقلة ، وهى التى ترتب على قيامها حصار ألمانيا الاقتصادى وحرمانها من ثمار كدها وخفض مستوى العيش فيها . كذلك لم يخف هتلر وسادة الحرب الجرمانيين أنهم يعملون على فرض سيادة الجنس الجرمانى (الآرى) وتمكينه من الرياسة التى يؤهله لها تفوقه على سائر الأجناس الأخرى . وما فتئت بريطانيا العظمى من جانبها تؤكد أنها تحارب لمقاومة الطغيان الفاشستى وإنقاذ النظم الحرة والشعوب الديمقراطية مما يهددها من ضروب الذلة والاستعباد السياسى والاقتصادى الذى تحاول الفاشستية فرضه عليها .

ولما كشف هتلر القناع وغزا روسيا السوفيتية فى صيف سنة ١٩٤١ عاد يردد نغمته القديمة فى وجوب سحق البلشفية وإنقاذ العالم من خطرها المدمر . ومع أن الغزو الجرمانى لروسيا يرجع إلى بواعث كثيرة أخرى فانه لم يكن ثمة شك فى اللون المذهبى « الايديولوجى » العميق الذى كان يطبع الصراع بين البلشفية والنازية . وهنا وقع تحول جوهرى فى سير هذا النزاع ؛ فان بريطانيا زعيمة الجبهة الديمقراطيه يومئذ لم تتردد فى الوقوف إلى جانب روسيا إزاء خطر النازية المشترك . وفى نهاية هذا العام أيضاً (١٩٤١) وقفت أمريكا إلى جانب روسيا البلشفية ، وذلك حينما نزلت اليابان إلى الميدان لتحارب أمريكا وبريطانيا وتؤيد بذلك مجهود النازية الحربى . وانتظم بذلك الثالوث « الديمقراطى » العتيد ضد النازية والفاشستية ، وأسبغت الصفة الديمقراطية على روسيا البلشفية ، وذلك بالرغم من كل ما أسبغ من قبل على النظام البلشفى ووسائله من النعوت المفزعة والغايات المدمرة ، واستحل كل اعتبار وتنوسى كل خلاف لتوطيد المجهود المشترك ضد النازية والفاشستية . وألفت الصفة المذهبية أو الايديولوجية للحرب العالمية الثانية أقوى تأييد وأصدقه فى ميثاق الأطلنطيق الذى وقعته الدول الثلاث حتى قبل أن تدخل أمريكا الحرب . ففى هذا الميثاق تؤكد الدول الديمقراطية الثلاث أنها تعمل لسحق الاستبداد النازى كى تستطيع الأمم أن تعيش فى دائرة حدودها بسلام ويستطيع الناس فى جميع أنحاء العالم أن يعيشوا بمأمن من الشقاء والخوف . وألفت هذه

« الايديولوجية » صداها القوى قبل ذلك فى ميثاق الحريات الأربع الذى أعلنه الرئيس روزفلت فى رسالته إلى الكونجرس ، وهى حرية القول والرأى وحرية العبادة والتحرر من الخوف والتحرر من الفقر ، وكلها مما تنكره النازية والفاشستية أشد الانكار .

وكان القضاء على النازية أحد الأسس الجوهرية التى وضعت منذ مؤتمر القرم لتطبيقه على ألمانيا المهزومة . ولما تم سحق الجيوش الهتلرية وسلمت ألمانيا لأعدائها الظافرين بلا قيد ولا شرط ، وضع الحلفاء نصب أعينهم مطاردة النازية والعمل على سحقها بكل وسيلة . واعتبرت النازية جريمة واعتبر معتنقوها ودعاتها مجرمون يعتقلون ويحاكمون . وما تزال محاكم الحلفاء العسكرية فى مناطق ألمانيا المحتلة مشغولة بمحاكمة النازيين واصدار أقسى الأحكام عليهم . وقد حلت جميع التشكيلات النازية وطوردت بشدة ، وشرد النازيون أو من تعلق بهم ريبة النازية من أعمالهم ووظائفهم . وهكذا غدت ألمانيا النازية نقمة على كل من اعتنقها أو عمل فى ظلها . وعمل الحلفاء فى نفس الوقت على إحياء العناصر الاشتراكية والديمقراطية القديمة التى قضى عليها هتلر لتكون نواة لاحياء الفكرة الديمقراطية فى ألمانيا وإنشاء ألمانيا الديمقراطية المستقبلة .

على أن هذا الصراع المذهبى الذى طبع الحرب العالمية الثانية لم ينته بتحطيم الجبهة الفاشستية وظفر الجبهة الديمقراطية ، ولكنه ينشب اليوم بين حلفاء الأمس بصورة واضحة ، وتنشق « الجبهة الديمقراطية » القديمة على نفسها بعد أن وحد بينها الخطر المشترك مدى حين . والواقع أن التحالف بين روسيا البلشفية والدول الغربية خلال الحرب لم يكن أمراً طبيعيا ، ولكنه كان نتيجة محتومة لتفوق الجبهة الفاشستية خلال الحرب والخطر المشترك الذى يهدد البلشفية والديمقراطية على السواء . ولم تنس روسيا البلشفية قط مايفرق بينها وبين حلفائها الديمقراطيين من الفوارق المذهبية الجوهرية . ولم تنس بريطانيا وأمريكا أنهما تعملان مع المارد البلشفى الذى طالما توجستا شرا من خططه ومبادئه الثورية وطالما رغبتا فى تحطيمه وسحقه .

ومن ثم فانه ما كاد لواء النصر يعقد « للأمم المتحدة » ويتم القضاء على ألمانيا النازية حتى ظهرت بوادر الخلاف واضحة بين حلفاء الأمس ، وأخذت

روسيا السوفيتية ترتد سراعاً إلى حظيرتها القديمة وتجرى فى سياستها الخارجية على طريقتها الخاصة وتحرص على تحقيق أهدافها القومية والدولية القديمة ، وتحركت المنافسات القديمة بين الفريقين فى سبيل التوسع السياسى والاقتصادى ، وظهر هذا الخلاف فى أشد صورة فى سائر الاجتماعات والمؤتمرات المشتركة التى عقدت فى العامين الأخيرين بين روسيا السوفيتية وحلفائها بالأمس : فى مؤتمر بوتسدام وفى مؤتمر موسكو وفى اجتماعات مجلس وزراء الخارجية وغيرها وكذلك فى هيئة الأمم المتحدة التى غدت مسرحاً لنضال مضطرم مستمر بين بين روسيا والدول الغربية .

ويتخذ هذا الصراع المذهبى بين روسيا البلشفية والولايات المتحدة صوراً عملية لا شك فى خطورتها . فالاعتمادات الضخمة التى أقرها الكونجرس (البرلمان الأمريكى) منذ بضعة أشهر لمساعدة اليونان وتركيا ، والاعتمادات التى طلب الرئيس ترومان اقرارها أخيراً لمساعدة فرنسا وإيطاليا والنمسا ، والبرنامج الشامل الذى وضعته أمريكا لتعمير دول أوربا الغربية وإنهاضها وهو المعروف ببرنامج مارشال ، تنبىء كلها بما تنطوى عليه من تضحيات ضخمة عن عزم أمريكا الراسخ على العمل بكل ما وسعت لتقوية الحواجز الأوربية ضد الزحف الشيوعى . وحماية الدول التى تتعرض أكثر من غيرها للضغط الشيوعى ومطامع السياسة البلشفية ، ومعاونة الدول الغربية على مكافحة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التى تهددها بالدمار والفوضى لتكون أكثر مقدرة وجلداً على مقاومة الخطر الشيوعى الذى يلوح اليوم منذراً فى أفق الكثير منها ولا سيما إيطاليا والنمسا وفرنسا .

ولم تحجم روسيا التى ترى أن السياسة الأمريكية الرأسمالية ترمى إلى تطويقها والعمل على تقويض نظمها وثورتها عن الرد ؛ فقد عملت على إحياء الكومنترن أو الدولية الشيوعية التى ألفت خلال الحرب لتعمل على تقوية الجبهة الشيوعية فى أوربا بوسائلها الخاصة ، وجعلت مقرها فى بلغراد على مشارف البلقان وإيطاليا . وقد ظهر أثر نشاط الدولية الجديدة واضحاً فى القلاقل الشيوعية التى قامت أخيراً فى إيطاليا وفرنسا ، وفى التقريب بين دول البلقان وشرقى أوربا الخاضعة لنفوذ روسيا ، وارتباط رومانيا ويوجوسلافيا وبلغاريا وألبانيا ثم المجر ورومانيا بمعاهدات عسكرية واقتصادية تجعل منها كتلة موحدة تحت

إشراف موسكو وتوجيهها . وتجدّ روسيا فى الوقت نفسه فى تقصى أسرار القنبلة الذرية ، ولعلها قد ظفرت بها إذا صدقنا تصريحات الرفيق مولوتوف . وما زال مستقبل ألمانيا محوراً للصراع بين روسيا وبريطانيا وأمريكا ؛ إذ تريد الدولتان الغربيتان أن تجعلا من ألمانيا حاجزاً ضد البلشفية ، وتريد روسيا أن تظفر من الاشراف على مصاير ألمانيا الاقتصادية بأكبر قسط ، وتريد أن تحصل من موارد ألمانيا على أعظم نصيب ، وتعارضها أمريكا وبريطانيا فى هذ السياسة . ويبدو الاصطدام الروسى الأمريكى أوضح وأشد حيثما تعلق الأمر بمصالح استراتجية أو بترولية حسبما يحدث فى شرق البحر الأبيض المتوسط وفى كوريا والصين وإيران .

وهكذا تضطرم المعركة بين الجبهتين الروسية والأمريكية البريطانية سافرة يبدو لونها المذهبى واضحاً لا خفاء فيه ، فهى معركة البلشفية والرأسمالية ، وهى فوق ذلك معركة التوسع والنفوذ العالمى . وأخطر ما فيها نزعتها المذهبية التى ما فتئت منذ ثلاثين عاما تهدد سلام العالم والتى كانت أكبر عامل فى اضرام نار الحرب العالمية الثانية . فاذا لم ينجح الفريقان المتنازعان إلى نوع من التهادن والتفاهم ، وإذا استمر هذا الصراع بينهما على اضطرامه ، فانه سوف يفضى بلا ريب إلى نتيجته الطبيعية ، وهى تسميم الأفق الدولى والتمهيد المنظم لقيام حرب عالمية جديدة ، يحاول كل من الفريقين فيها أن يقضى على الآخر وعلى مبادئه ونظمه بطريقة حاسمة . وقد تطول نذر هذا الانفجار الجديد أعواماً ، ولكنه سوف يقع فى النهاية إذا استمر كل فريق فى إصراره على موقفه وغاياته ومثله .

محمد عبد الله عنان